الرواة والمسكوت عنه في الشعر بين العرب والمستشرقين

د. نهى حمدي أحمد إبراهيم

مصر

الاستلام	٢٠١٩/١١/١٤	المراجعة	٢٠١٩/١٢/١٥	النشر	٢٠١٩/١٢/٣١

الملخص:

إن قراءة النصوص الشعرية تنبني في المقام الأول على سبر أغوار النتاج الأدبي، والوقوف على مكنوناته، والوصول إلى بنيته العميقة دون السطحية، والتي تحدد بدورها فاعليته وقيمته في محيطه الثقافي والأدبي. وقد أدى الرواة والمحققون العرب والمستشرقون دورًا بالغ الأهمية في إقصاء، أو لنقل "قمع" بعض النتاجات الأدبية، التي عدوها خارجة عن الإطار النقدي والأخلاقي والسياسي والديني، مما أحدث بدوره فجوةً بين رواية الشعر في الديوان، وروايته في كتب التراث. وقد ظهرت تلك الإشكالية بجلاء في أعمال المستشرقين الذين ارتأوا في "المسكوت عنه" في الشعر مظان السلب والعوار الذي يفت في عضد ثقافتنا العربية الأصيلة، فأخذوا على عاتقهم محوه تعضيدا لسياساتهم التي اكتنفها العداء حسب الإواليات المسيطرة علينا دون استنطاق فعلي للنصوص الكاملة، وبعضهم قد حجب عن قراء العربية بعض النصوص متذرعًا بحصول المفسدة من إذاعتها، فقدم نصوصًا مبتورةً. الأمر الذي يختلف مع المحققين العرب الذين أخذوا على عاتقهم –في غالبية الأحايين- السكوت عن بعض جوانب ذلك التراث صونًا له، وإعلاءً لشأن العربية.

وتتغيا تلك القراءة الوقوف على فجوات ديوان العربية ورصد مسارات القمع وآلياته، وتحليل الوشائج بين عمل الرواة قديمًا، والمحققين العرب والمستشرقين حديثًا، وإعادة قراءة المشهد الشعري الذي قدمه ذلك "المسكوت عنه" وفق معطيات الثقافة العربية. ولا ينحصر حجم "المسكوت عنه" في أبيات محدودة في دواوين بعينها، بل لقد انسحب الحكم بالمسكوت عنه إلى حقب تاريخية بأكملها امتدت إليها السلطة، وعملت على طمس معالمها، ونفي سيرة شخوصها، ولعل أبرز الأمثلة الدالة على ذلك النهج في تراثنا ما نلتقيه من محو لمعالم التاريخ الأموي ولسيرة بعض خلفائه، وكذا ما يلحق بالتاريخ الفاطمي الذي اندثر تحت وطأة ثقافة "المسكوت عنه".

الكلمات المفتاحية:

المسكوت عنة، التلقى، الشعر العربى، الاستشراق، التحقيق.

Narrators and the silence in the poetry between Arabs and orientalists

Dr. Noha Hamdi Ahmed

Egypt

Received	14/11/2019	Revised	15/12/2019	Published	31/12/2019

Abstract:

Reading poetic texts is based primarily on probing the depths of literary production, identifying its potentials, and reaching its deep sub-surface structure, which in turn determines its effectiveness and value in its cultural and literary surroundings. Arab and Orientalist narrators and investigators played a very important role in excluding, or in transmitting, "suppression" of some literary productions, which they considered outside of the critical, moral, political and religious framework, which in turn created a gap between the poetry novel in the Diwan and its narration in heritage books. This problem has been clearly demonstrated in the works of orientalists, who saw in the "untold story" in poetry the signs of looting and shame that are missing in the support of our authentic Arab culture.

They took it upon themselves to erase it in support of their hostile politics - according to the preoccupations that dominate us without actual interrogation of the full texts, and some of them had withheld from Arabic readers some texts, citing the occurrence of spoilers from their broadcasting, so he presented truncated texts. Which differs with Arab investigators, who have taken it upon themselves - in most cases - to remain silent on some aspects of that heritage in order to preserve it, and to uphold Arab affairs

Key words:

Al-Maskoot curse, receiving, Arabic poetry, Orientalism, investigation.

المقدمة:

إن قراءة النصوص الشعرية تنبني في المقام الأول على سبر أغوار النتاج الأدبي، والوقوف على مكنوناته، والوصول إلى بنيته العميقة دون السطحية، والتي تحدد بدورها فاعليته وقيمته في محيطه الثقافي والأدبي، وقد أدى الرواة والمحققون العرب والمستشرقون دورًا بالغ الأهمية في إقصاء، أو لنقل "قمع" بعض النتاجات الأدبية، التي عدوها خارجةً عن الإطار الأدبي النقدي والأخلاقي والسياسي والديني، مما أحدث بدوره فجوةً بين رواية الشعر في الديوان، وروايته في كتب التراث، وقد ظهرت تلك الإشكالية بجلاء في أعمال المستشرقين والمحققين الذين ارتأوا في "المسكوت عنه" في الشعر مظان السلب والعوار الذي يفت في عضد ثقافتنا العربية الأصيلة، فأخذوا على عاتقهم محوه؛ تعضيدًا لسياساتهم التي اكتنفها العداء- حسب الإواليات المسيطرة علينا دون استنطاقٍ فعليٍّ للنصوص الكاملة، وبعضهم قد حجب عن قراء العربية بعض النصوص متذرّعًا بحصول المفسدة من إذاعتها، فقدم نصوصًا مبتورةً، الأمر الذي يختلف مع المحققين العرب الذين أخذوا على عاتقهم –في غالبية الأحايين- السكوت عن بعض جوانب ذلك التراث؛ صونًا له، وإعلاءً لشأن العربية.

وتتغيا تلك القراءة الوقوف على فجوات ديوان العربية، ورصد مسارات القمع وآلياته، وتحليل الوشائج بين عمل الرواة قديمًا، والمحققين العرب والمستشرقين حديثًا، وإعادة قراءة المشهد الشعري الذي قدمه ذلك «المسكوت عنه» وَفْق معطيات الثقافة العربية، ولا ينحصر حجم «المسكوت عنه» في أبياتٍ محدودةٍ في دواوينَ بعينها، بل لقد انسحب الحكم بالمسكوت عنه إلى حقبٍ تاريخيةٍ بأكملها امتدت إليها السلطة، وعملت على طمس معالمها، ونفي سيرة شخوصها، ولعل أبرز الأمثلة الدالة على ذلك النهج في تراثنا، ما نلتقيه من محوٍ لمعالم التاريخ الأموي، ولسيرة بعض خلفائه، وكذا ما لحق بالتاريخ الفاطمي الذي اندثر تحت وطأة ثقافة «المسكوت عنه».

ولعل من بين أبرز الإشكاليات التي تجابه تلك القراءة هي فاعلية المسكوت عنه في واقع ثقافتنا الآنية، فهل تمثل إعادة الطرح لذلك المسكوت عنه بوصفه لبنةً في بناء صورةٍ مثلى لتراثنا العربيّ العريق؟ أم أنها تشكل حجر عثرة في سبيل تقدمنا الحضاري والإنساني؟

تميل بعض الأطروحات إلى جدوى إعادة نشر «المسكوت عنه»؛ بغية الوقوف على ملامح الإيجاب والتميز والجدارة في بنية التراث العربي، فلعل الكشف عن ذلك «المسكوت عنه» يمثل دعامةً لثقافتنا المعاصرة، وأساسًا نتكئ عليه في سبيل نهضتنا، ويذهب آخرون إلى كونه لا يتعدى جرحًا غائرًا لا يجب علينا أن ننكأه أبدًا، فسبيل التقدم الذي يتعين علينا أن نمضي فيه قدمًا لا يتماشى مع إواليات ذلك «المسكوت عنه» الذي يفرض علينا ظلالًا سوداويةً من السلب والوهن، ويفتح المجال رحبًا أمام معاول النقد والهدم التي قد تُوَجَّه إلى كيان تراثنا العربي، فهل تعد إعادة نشر ذلك «المسكوت عنه» خروجًا من عباءة الحفاظ على التراث العريق؟ أم سعيًا دءوبًا مُلحًّا وفاعلًا لاستكمال بنيته المثلى من خلال إضافة تلك العناصر الغائبة، واستحضار مفرداته لتَمْثُل بكثافتها وزخمها في العقل الجمعي؟

إن التراث العربي بأكمله يمثل لوحةً من الفسيفساء التي يعد «المسكوت عنه» أكثر الأجزاء فيها وجاهةً ونصاعةً، وأقواها أثرًا في تشكيل ملامح تلك اللوحة الجدارية الفريدة.

لعل مناقشة أبعاد «المسكوت عنه» في تراثنا الشعري تعد- في بعض الأحايين- مطعنًا يفند أهمية هذا التراث، وذلك البناء الثقافي الشامخ، ويضرب بعمقٍ في فاعلية التواصل الحضاري الثقافي المنشود بين ماضينا وحاضرنا.

إن الأمة العربية بحاجةٍ ماسةٍ إلى ما يعضد تماسكها، ويدعم التشابك والوحدة بين لحمتها وسداها، فبعض الآراء تشير إلى أنه قد يؤصل لشعور الاقتلاع والتشيؤ والانفصام، الأمر الذي يتنافى مع رسالة إحياء ذلك الإرث الثقافي، «فالمسكوت عنه» الذي يحمل بذور السلب والخلاف- من وجهة نظر بعضهم- يخترم بنية التراث المتماسكة، ويفند مشروعيتها في مواصلة دورها الحضاري الثقافي المعرفي، ويحيل التراث إلى كوةٍ معتمةٍ لا ينفذ منها شعاع التقدم والمعرفة.

إن إشكالية «المسكوت عنه» في تراثنا العربي حُبلى بتجلياتٍ متناقضةٍ تتصارع في فضاءاتٍ شتى، فبعضها يؤصل للاقتلاع والدونية والخلاف، ويعج بمفردات السلب التي تضرب في جذور ثقافتنا المتأصلة في كياننا وذواتنا، وبعضها الآخر ينصرف إلى معاني التجذر والكشف والفاعلية، ولن يمكن بأية حالٍ من الأحوال الاستفادة من طاقات درس المسكوت عنه في إعادة قراءة تراثنا العربي ما دمنا لا نتسلح بإعادة تأويل مفردات مشهد قبولنا لذاك "الآخر" الذي استقر في مساراتٍ مضادةٍ في كياناتنا وذواتنا.

وتكمن مخاطر البحث عن المسكوت عنه في طيات تراثنا العربي في استعصائه على التنقيب في بعض الأحايين؛ «فقد تمكن بعض علماء الشعر من الإشارة إلى بعض الشعر المصنوع أو المدخول، ولم يتمكنوا من الإشارة إلى بعضه الآخر»[١].

الاستشراق و"المسكوت عنه":

تباينت الآراء التي تناولت الجهود الاستشراقية في خدمة التراث، وتفاوتت زوايا النظر إلى المنهج الاستشراقي، وتقدير قيمته، «فلم يكن موقف كتابنا من الاستشراق واحدًا ولا مجمعًا عليه ولا مطردًا فيه، بل مشتتًا متناقضًا مضطربًا يدحض بعضه بعضًا»[٢]. فتذهب الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى أنه قد «وُضع هذا التراث بين أيدي المستشرقين الذين عكفوا عليه في شبه رهبنةٍ، يفحصون نصوصه ويحققونها، وينشرونها على أحدث منهجٍ للتحقيق والضبط والنشر»[٣].

وعلى الجانب الآخر المناهض يذهب شكيب أرسلان إلى الحمل على الجهود الاستشراقية حملةً واسعةً، فيقول: «وعلى كل الأحوال لا يقدر أحدٌ أن يقول إن الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين في آداب الشرقيين، ولغات الشرقيين...، وإن من الحمق أن نظن مرجليوث بكونه إفرنجيًّا صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهليّ الأصلي»[٤]، إن المدرسة الاستشراقية –في بعض الأحايين- كانت تنتهج سبيل التدقيق والتمحيص لنصوص العربية قبل إخراجها، وقد وقفوا موقف المتفحص المتأمل في تحقيق مخطوطات العربية «ففلوجيل مثلًا قضى خمسًا وعشرين سنة في جمع مخطوطات نص كتاب (الفهرست) لابن النديم، من مكتبات فيينا وباريس ولندن، ومات ولما يتم تحقيقها، وتصحيح ما فيها من تحريفٍ أو تصحيفٍ، ونقدها وتمحيصها على ضوء الاكتشافات الحديثة في الآثار والعلوم والآداب والفنون، ومن أمانةٍ على النص بحيث لا يبيح أحدهم لقلمه أن يتناول كلمةً أو حرفًا منها بالحذف أو الإضافة أو التغيير، ومن شرح غوامضها والاستدراك عليها والإضافة إليها في هوامش صفحاتها...»[٥].

يقول عبد الرحمن بدوي تعليقًا على عمل ألڤرت : «وهذه النشرات الثلاث[٦] تدل على امتلاكه ناصية اللغة العربية؛ فقهًا وأدبًا، وعلى قدرته الفائقة على التحقيق الفيلولوجي الدقيق لنصوص الشعر العربي القديم، وعلى الرغم من مرور أكثر من خمسة وسبعين عامًا على صدورها، فإنه لم تصدر لهذه الكتب تحقيقات خير من تحقيق ألڤرت لها، وما صدر من طبعاتٍ فإنها إما منقولةٌ عنها بعد تجريدها من جهازها النقدي الممتاز، وإما طبعاتٌ ملفقةٌ بعيدةٌ عن كل أصول التحقيق العلمي للنصوص، ومن هذا النوع الأخير طبعة "الأصمعيات" التي صدرت في القاهرة سنة ١٩٥٣ (دار المعارف) على الرغم مما قاله لنا الناشران في المقدمة من أنهما اعتمدا على "أصلٍ موثقٍ" – لم يذكراه بالتحديد في مقدمتهما هذه، ويبدو أنهما إنما يشيران إلى ما ذكراه في مقدمة نشرتهما لكتاب "المفضليات" من أنهما اعتمدا على نسخة (محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي) عن النسخة المخطوطة – المحفوظة بخزانة كوبريلي باستانبول، ونسخة الشنقيطي هذه نسخةٌ نسخها لنفسه، وأضاف إليها من عنده ما رآه في مصادر أخرى، وحذف منها ما حذف، فهي نسخةٌ ملفّقةٌ تمامًا لا يمكن الاعتماد عليها مطلقًا، وكان عليهما أن يرجعا إلى النسخة الأصلية التي عنها نقل الشنقيطي نسخته، لكنهما لم يرجعا إليها، وقالا اعتذارًا عن ذلك: «ثم هذه النسخة التي نقل عنها الشنقيطي بقية الأصمعيات لم نَرَها، ولولا ظروف الحرب الحاضرة لاجتهدنا في إحضار نسخةٍ مصوّرةٍ عنها لندرسها، لعلّنا كنا نستنبط منها أشياء لا

نستطيعها، وهي غائبة، لكن الغريب هو أنهما كررا هذا الكلام بعينه في الطبعة الثالثة التي صدرت ١٩٦٤، فهل استمرت "الحرب الحاضرة" حتى ١٩٦٤؟ ألم تكن قد انتهت قبل ذلك بتسع عشرة سنة؟!.

والأعجب من هذا ما كتباه في مقدمة طبعتهما (ولا أقول: نشرتهما) لكتاب "الأصمعيات": فبدلًا من أن يذكر الفضل لصاحبه –وهو ألفرت- راحا يرميانه بالشتم والإهانة غير اللائقين، ويبدو أن هذه "عادةٌ" سار عليها بعض المتصدرين لإعادة طبع ما سبق أن نشره المستشرقون بعد تحقيقٍ علميٍّ دقيقٍ بذلوا فيه كل سعيٍ جميلٍ، ولا يسعنا إلا الأسف على انتشار هذا الجحود بين "المتصدرين" لطبع بعض النصوص الأدبية القديمة، وهو جحودٌ لا ينطلي على أحد من أهل العلم الحقيقيين!» [٧].

وقد أورد عبد الرحمن بدوي قول آربري – أحد المستشرقين-: «قبل أن يتيسر إقرار الحق عن الشرق وشعوبه في الضمير المشترك للغرب، ينبغي إزالة حشد هائل من الباطل وسوء الفهم والأكاذيب المتعمدة، وإنه لجزء من واجب المستشرق ذي الضمير الحي القيام بهذه الإزالة، لكن لا تدعه يحسب أن هذه المهمة سهلة، أو أنه خصوصًا سيلقى عنها الجزاء»[٨].

العرب والمسكوت عنه:

لم يكن العرب –سواءٌ أكانوا رواةً أم محققين- بمنأى عن ضياع شطرٍ واسعٍ من إرثهم الشعري؛ فقد وقفوا فيه على جملةٍ من الممنوعات على الثقافة العربية الآنية، ارتأوا فيها مخالَفةً للتقاليد والآداب، فقاموا بطمسها ومحو معالمها، وجهدوا في إخراج النصوص مبتورةً مشوهةً لا يستقيم مرادها، ولا يُطمأن إلى صحتها؛ لتوافق علة أذهانهم.

لقد عانت الثقافة الآنية من ضيق أفقٍ منع عنها رؤيةً شموليةً لعصرها؛ فقد تعسف المعاصرون في الحكم على المسكوت عنه، وأعملوا فيه قواعد زمانهم وآنيتهم، ولم يحكموا على تلك النصوص وَفق عصر إنتاجها، الأمر الذي أفرغ النصوص من فحواها، وأحالها إلى جثةٍ هامدةٍ لا تبين عن معالم زمانها، ولا تفصح عن خوالج أصحابها.

وتبرز إشكاليةٌ مهمةٌ في ذلك السياق تنحصر حول ذلك المسكوت عنه الذي أحجم الرواة عن إيراده في ديوان الشعر العربي، ومقارنته بنظيره الذي شاع وانتشر في الثقافة العربية الإسلامية لشعراء يحملون السمت نفسه، فلماذا بقي شعر (السموأل بن عادياء) اليهودي أشهر شعراء اليهود، وانمحى أثر أشعارهم من ديوان العربية؟

وقد قدم المستشرقون تعليلًا مقبولًا في هذا السياق، ولعل السبب من وجهة نظرهم راجعٌ إلى دخول أهله في الإسلام، الأمر الذي حافظ على شعره، ولم يتعرض بعدها للضياع والاندثار والإقصاء كما فُعِل بغيره[٩]. إن ديوان الشعر الجاهلي لم يحفظ لنا شعرًا يهوديًّا خالصًا يحمل سمت اليهود الديني في عباداتهم وطقوسهم ومناسباتهم الدينية، فهو خلوٌ من هذا الأثر المائز لأشعارهم دون غيرها.

ولعل من بين القصص التي تشير بطرفٍ خفيٍّ إلى قضية المسكوت عنه في الشعر العربي القديم مِنْ قِبَل الرواة ما أذيع عن أبي عمرو بن العلاء من حادثة إحراق كتبه، فقد «كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء، قد ملات بيتًا له إلى قريبٍ من السقف، ثم إنه تَقَرَّأَ فأحرقها كلها، فلما رجع بعد علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعرابٍ قد أدركوا الجاهلية.

وقد ذهبت الآراء غير مذهبٍ في تفسير تلك الحادثة، ولعل أقربها للصواب ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أنه كان تحت تأثير أزمةٍ دينيةٍ تدل على أن أوساط التدين في العراق لا تنظر بعين الارتياح إلى التنقيب عن بقايا الوثنية[١٠]، إن تلك الحادثة تؤكد على صدور الإقصاء والحجب للشعر الذي حمل بذور الخلاف مع عقيدتهم الإسلامية.

ويذهب الدكتور طه حسين في مؤلفه "في الشعر الجاهلي" إلى أن «الرواة يحدثوننا أن عمر نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي، وهذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى، وهي أن قريشًا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضًا أيام النبي، وكانوا حراصًا على روايته، يجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر

به إلا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر»[١١]، ويستطرد طه حسين في ثنايا حديثه عن تلك العصبية التي نشبت بين قريش والأنصار ، فيقول: «ولا أريد أن أدع هذه العصبية دون أن أذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم أخي الخليفة مرْوان من هذا النضال العنيف الذي لم يبق لنا منه إلَّا آثار قليلة»[١٢].

لقد نَصَّب الرواة أنفسهم على ثُغَر التراث الشعري، وأقاموا لا يبرحون أماكنهم تنقيحًا لذخائره وَفْق رؤاهم وثقافاتهم وفلسفاتهم، لقد اعتاف أولئك الرواة الشعر الجاهلي بصورته التامة المعبرة عن تفصيلات العصر ومشكلاته، وما يعتوره من همومٍ ومثالب، فأعملوا فيه معاول "الهدم" و"الحذف"؛ لما يتعارض مع فلسفاتهم ومنظورهم الفكري والديني، لقد مثل بعضُ الرواة كواكب ثاقبةً في انتحال الشعر، وتغيير معالمه، وانتحال أبياته.

لقد احتمل الرواة العبء الأكبر في إشكالية ضياع شعرنا العربي، وعول عليهم المتخصصون في حمل تبعة ذلك الفقد المقصود، وقد عقد الدكتور طه حسين في مؤلفه الشعر الجاهلي فصلًا خاصًّا عن انتحال الرواة، فالرواة هم العماد الرئيس والركن الركين في ضياع شطرٍ لا يستهان به من تراثنا الشعري، وتنامى حجم "المسكوت عنه" في العربية، فقديمًا قال الحطيئة: «ويلٌ للشعر من الرواة السوء»[١٣]؛ فقد دحضوا- في معظم الأحايين- رواية الأشعار التي تناهض معتقداتهم الفنية والعقائدية، وتتنافى مع إواليات نماذجهم الموضوعة سلفًا، والتي كان لزامًا على عصبة الشعراء أن ينتجوا إبداعهم وَفْق نهجها الصارم، وإلا حُكِم على نتاجهم الشعري بالنفي، وعلى شاعريتهم بعدم المشروعية والجواز، إن ذلك الصنيع الجائر كان مبعثه السلطة التي تحرص على عدم ذيوع الشعر الذي يخالف مذهبها، ويدعم منهجًا مناهضًا لسياستها.

ولم توافق علة فساد الرواة وانتحالهم رأي الرافعي الذي فنَّد بدوره صنيع طه حسين؛ فقد بلغ الخلاف بينهما أوج ذروته ، فقد أدحض الرافعي ما ذهب إليه عميد الأدب العربي معتمدًا على جملةٍ من الأدلة، كان من بينها:

- إن محو شعر النصارى واليهود أو المشركين لم يقع في عصور الإسلام الأولى.
- كان العرب يروون شعر اليهود، واستشهد بقول الجاحظ: " أدركت رواة المسجديين والزيديين، ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود؛ فإنهم كانوا لا يعدونه من الرُّواة"، وقد فند بروكلمان قصدية الرواة في التحريف الذي نال الشعر الجاهلي «فيبدو أن القصد إلى التشويه والتحريف لم يؤد إلا دورًا ثانويًّا، وقد روى علماء المسلمين أشعارًا للجاهليين تشتمل على أسماء الأصنام وعبادتها، وإن أسقطوا أبياتًا أخرى لشبهاتٍ دينيةٍ، وذلك في حالاتٍ يبدو أنها قليلةٌ؛ لأن الشعور الديني لم يكن غالبًا على نفوس العرب في الجاهلية»[١٤].

ولعل المتأمل لديوان العربية يلحظ الدور البالغ الذي أداه النزاع الديني والطائفي في خلق "المسكوت عنه"، وإذا انتقلنا من ديوان الجاهلية إلى ديوان الشعر الإسلامي، فسنلتقي الحذف الذي أعملته "الأيادي الجانية" في ديوان شاعر الرسول ﷺ «فإذا كانت السياسة قد أضافت إلى ديوان الشاعر أشعارًا منحولةً، فإن العلامة الأميني يعتقد أن السياسة تدخلت في حذف كل ما قاله الشاعر في مدح أمير المؤمنين من ديوانه، ومن هذه المدائح هي غديريته التي يقول في مطلعها:

يناديهم يوم الغدير بنيهم بخم وأسمع بالرسول مناديا

يذكر الشيخ الأميني اثني عشر حافظًا من حفاظ أهل السنة وخمسةً من متقدمي علماء الشيعة الذين رووا هذه الأبيات المذكورة لحسان، لكنها غير مذكورةٍ في ديوانه، أيضًا مدح حسان عليًّا بأشعار كثيرة أخرى مسطورة في الكتب، ومسقطة عن ديوانه المطبوع مكررًا، حيث إنه لعبت في ديوانه الأيادي الجانية»[١٥].

ويحدثنا العماد الأصفهاني الكاتب في خريدته مترجمًا للبثيري الصقلي، إذ يقول:

«هو عبد الرحمن بن محمد بن عمر من مدينة بُثَيْرَةَ، حامِلُ القرآن، ومُسَاجِل الأقران، ذكر أن باعَه في الترسّلِ أمدّ، وخاطرَه في النثر أَحَدُّ، وأورد له قصيدة مدح بها رجار الفرنجي -صاحب صقلية- يصف المباني والجنان الصقلية، ذكر أنه أنشدها لنفسه، منها:

أدِرِ العقيقَ العَسْجَدِيَّهْ ... وَصِلِ اصطباحَكَ بالْعَشِيّهْ
واشْرَبْ على وقعِ المثا ... نِي والأغاني المَعْبَدِيَّهْ
ما عيشةٌ تصفو سِوى ... بِذُرى صِقِلِّيَةٍ هَنِيّهْ
فِي دَوْلَةٍ أَرْبَتْ على ... دُولِ المُلوكِ الْقَيْصَرِيَّه

ومنها:

وقصورِ مَنْصورِيَّةٍ ... حطّ السرورُ بها المطيَّه
أعجبْ بِمَنْزِلِها الذي ... قَدْ أكْمَلَ الرحْمَنُ زِيَّهْ
والملعب الزاهِي على ... كلّ المباني الهندسيهْ
وريَاضِهِ الأُنُفِ الّتِي ... عادَتْ بها الدُّنْيا زَهِيَّهْ
وأسودِ شَأذِرْوَانِهِ ... تَهْمى مياها كَوثريه
وكسا الربيعُ رُبوعَها ... من حسنه حُلَلًا بَهِيَّه
وَغَدَا وكَلَّلَ وَجهَهَا ... بمُصَبِّغَاتٍ جَوهَرِيّهْ
عَطَّرْنَ أنفاسَ الصَّبَا ... عند الصبيحة والعَشِيَّهْ

وهي قصيدة طويلة، وقال ابن بشرون: لما عرض عبد الرحمن عَلَيّ هذه القصيدة سألني أن أعمل على وزنها وَرَوِيّها، فقلت:

لله منصورِيَّةٌ ... رَاقَتْ بِبَهجَتِها البهيهْ
وبِقصْرِها الْحَسَنِ البِنا ... والشكلِ والغُرَفِ الْعَلِيّهْ
وَبِوَحْشِها ومِيَاهِهَا الْـ ... ـغُزْرِ الْعُيونِ الكوْثَرِيَّه
فقد اكْتَسَتْ جَنَّاتُها ... من بينها حُلَلًا بهيهْ
غَطّى عَبِيرَ تُرابِها ... بمُدَبَّجَاتٍ سُنْدسِيّهْ
يُهْدى إليكَ نسيمُها ... أفْواهَ طِيبٍ عَنْبَرِيّهْ
واسْتَوْسَقَت أشجارُها ... بأطايبِ الثَّمَرِ الجنيِّهْ
وتَجاوَبَت أطيارُها ... في الصبح دأبًا والعَشِيَّهْ
وبها (رُجار) سَما الْعُلَى ... مَلِكُ المُلوكِ القَيصَرِيَّهْ
في طيبِ عَيْشٍ دائِمٍ ... وَمَشَاهِدٍ فيها شَهِيَّهْ

واقتصرت من القصيدتين على ما أوردته؛ لأنهما في مدح الكفار فما أثبته"[١٦].

إن ذلك التشويه المتعمد لم يطل القدماء من المؤلفين فحسب، بل امتدت آثاره السلبية إلى الحاضر، فمحمد صادق محمد الكرباسي نراه يقول: «وهنا لا بد من القول بتثليث القصائد التي تعرضت من قبلنا إلى الحذف؛ حيث سبق وأشرنا إلى قصيدتي الصيمري –العينية واللامية- وذلك بسبب المسائل الطائفية، والآن نضيف إليهما قصيدة ابن أبي طالب النونية، والتي وردت بعنوان (ابن الأباطح والمشاعر)، حيث حذفنا منها ثمانيةً وثلاثين بيتًا»[١٧].

لم يشكل الشعر العربي القديم بئرًا كدودًا لا يُنال إلا بجهدٍ ومشقةٍ وعُسر، بل مثّل عينًا عذبةً يمتاح منها الرواة والمستشرقون والمحققون، ويصدون المتلقي عن ورود مظانها الأبكار.

لقد كان الخلاف مع "الآخر" ضميمةً رئيسةً اعتملت في اختياراتهم الشعرية، وقولبت عملية الانتقاء حسْب قواعد مفروضة سلفًا؛ فقد شكَّل "المسكوت عنه" ظلالًا شفيفةً تنبئ عن حجم هذا التصدير لتلك القوالب التي تموضع فيها الشعر العربي.

لقد امتدت غوائل الدهر إلى أنحاء تراثنا العربي في غير مظهرٍ، فتارةً يُمْنى بالحرق والغرق، وأخرى تغتاله أيدي المؤلفين الذين يدمرون مؤلفاتهم بأنفسهم تبرؤًا منها.

المبدع والمسكوت عنه:

لم تنصرف تبعة ضياع شطرٍ كبيرٍ من شعرنا العربي إلى الرواة والمستشرقين والمحققين العرب فحسب، بل شارك في هذا المضمار السلبي جملةٌ من الشعراء الذين عملوا على نفي إبداعاتهم التي لا توافق مراد السلطة، سواءٌ أكانت تلك السلطة سياسيةً أم فنيةً نقديةً.

ويطرح في هذا السياق سؤالٌ محوريٌّ مُفاده:

ما دور المبدع في وأد التصريح، وخلق فضاءاتٍ من المسكوت عنه؟

يعد المبدع هو أولى الحلقات التي تنتج فضاءاتٍ كثيفةً من المسكوت عنه ، وتختبئ ذاته خلف جدرانه، فلقد حرص المبدعون على ممالأة السلطة الحاكمة في غير عصرٍ من عصور تاريخنا العربي؛ خشية البطش والإقصاء، ورغبةً في التكسب الذي يعد محركا رئيسًا للشعر العربي القديم.

الزمنية وقضية "المسكوت عنه":

لقد شكل حاجز "الزمنية" دورًا بالغ الأثر في فقد مُعظم النصوص، فتارةً يشترط لقبولها أن يقع المبدع في إهاب القديم، ويُنْفى كل ما يتعارض مع ذلك القدم، ويجتث كل دوال الحداثة ونتاجها الأدبي مهما بلغ شأو إبداعها؛ لأنها قد اخترقت حاجز "الزمنية" الذي تقولبت فيه الأحكام النقدية، لقد تعاملت تلك العصبة مع التراث الشعري بوصفه بنيةً جامدةً ساكنةً تنمحي فيها مظاهر الحياة، يقول الدكتور طه حسين: «فالقديم خيرٌ من الجديد، والقدماء خيرٌ من المحدثين، يؤمن العامة بهذا إيمانًا لا سبيل إلى زعزعته...أما نحن فلا نزعم أن القدماء كانوا شرًّا من المحدثين، ولكنا لا نزعم أيضًا أنهم كانوا خيرًا منهم، وإنما أولئك وهؤلاء سواء، لا تفرق بينهم إلا ظروف الحياة التي تصور طبائعهم صورًا ملائمةً لها دون أن تغير هذه الطبائع، كان القدماء يكذبون كما يكذب المحدثون، وكان القدماء يخطئون كما يخطئ المحدثون، وكان حظ القدماء من الخطأ أعظم من حظ المحدثين»[١٨].

والسؤال الذي تحاول تلك القراءة طرحه هو:

- هل افتض الشعر الجاهلي كنه ذلك العصر، وما يعتوره من فلسفاتٍ ورؤى وهمومٍ ومثالب؟
- هل اطرح الرواة والمحققون والمستشرقون شطرًا من شعر العربية؟
- هل صار الشعر الجاهلي صفر الوفاض من حديث الشعراء آنذاك عن أصنامهم وطقوسهم ومناسباتهم الدينية؟
- هل أخضع الرواة والمحققون والمستشرقون شعر العربية للمعايير الأخلاقية، وأقصوا ما يتنافى مع مسلماتهم وطبائعم وعاداتهم؟
- كيف تعامل الرواة والمحققون والمستشرقون مع الشعر الإيروتيكي الذي يبلور شعور اللذة والنشوة والشهوة والافتنان بالكيان المادي لجسد المرأة؟
- ما حدود الإقصاء التي طبقت على التراث الشعري؟

مرجليوث والمسكوت عنه:

وتطرح معالجة المستشرقين للتراث العربي إشكاليةً مفادها:

ما حجم النتاج الاستشراقي الذي ينبغي ألا نعول عليه في قراءة تراثنا العربي؟ وما الشروط والمحددات التي يتحتم عندها على القائمين في حقل التحقيق حينئذٍ إعادة إصداره بنشراتٍ نقديةٍ تتوخى الدقة والمنهجية العلمية؟ وهل انخرط المستشرقون في قالب السلب عندما عالجوا إواليات التراث الشعري، وأعملوا الحذف في بنية النصوص التراثية المختارة؟

لقد نص مرجليوث في مقدمة نشرته النقدية على صنيعه بحذف الأبيات، فنراه يقول: «وقد جمعت بين النسختين، ولم أترك مما فيها إلا ما كان مخالفًا لآداب عصرنا هذا، فوضعت في كل بيت ما ظهر لي أنه أصح...» (١٩).

فمرجليوث قد قوض النص الشعري، وقام بِلَيِّ عنقه؛ تطويعًا له بما يتفق وقواعد العصر الحديث، ويتماشى مع معطيات الأخلاق التي تتجاهل طبيعة الزمن والبيئة والمكونات التي أنتجت في خضمها تلك النصوص، ومن ثم فإن تلك النصوص المحذوفة "المسكوت عنها" من قِبَل جماعة المستشرقين قد تكون مؤشرًا بالغ الخطر على عدم الإدراك الواعي لطبيعة التراث العربي، وكذا البيئة والشخوص المنتجين لتلك النصوص.

إن مرجليوث قد أعمل قواعد العصر الحديث في بنية الشعر القديم، وقوض النص اعتمادًا على معطيات العصر الحاضر، وألزم النص الأدبي القديم بشرائط أخلاقيةٍ آنيةٍ تغاير ما هو سائدٌ في عصور إنتاجه، إن مرجليوث لم يقف بالمتلقي على عتبات المحو، ولم يفصح بجلاءٍ وشفافيةٍ عن حجم المسكوت عنه في بنية النص الأصلي للمخطوط.

وقد أعمل مرجليوث مبدأ الانتقائية في اختيار نصوص الديوان، وحذف بدوره تلك الأشعار التي تتعارض مع معطيات الأخلاق في عصرنا الحاضر- حسب تعبيره-، وهو بهذا يُقِيم على نفسه الحجة، فتعاطيه لتلك النصوص قد انطلق من قاعدية تحتكم إلى طبيعة عصرٍ مغايرٍ لعصر إنتاجها، الأمر الذي يجافي قواعد المنطق، ويتعارض مع منهجية التحقيق الذي يناط به إخراج النصوص على أقرب شاكلةٍ وقت إنتاجها، ولكن الأمر اللافت للنظر في تلك الانتقائية المتعمدة هي حرص ذلك المستشرق على إواليات ومبادئ الثقافة العربية المحافظة الرصينة، التي تناهض كل ما هو مبتذلٌ، وتسقط العمل به، أو تدوينه في متون كتبها، إن ذلك الصنيع يبقى حمَّال أوجهٍ باختلاف زاوية النظر إليه.

إن صنيع مرجليوث يغفل وضعية منتج النص الذي ينتمي بدوره إلى طبقةٍ محافظةٍ متدينةٍ، ويحتل في عصره مكانةً رفيعةً، فسبط التعاويذي يعد من أبرز رجالات عصره الذين يتمتعون بسمعةٍ طيبةٍ، ومكانةٍ رفيعةٍ، ولكنه -في الوقت نفسه- لا يتغافل عن معطيات الثقافة الآنية التي تعاطت تلك النصوص، وأطلقت حكمًا بإخراجها للنور من خزائنها.

يقف على النقيض من صنيع مرجليوث الشيخ (محمد محيي الدين عبد الحميد) الذي ينص في مقدمة تحقيقه لكتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي على أنه «في الكتاب مجونٌ كثيرٌ، كما تجده في المختار من شعر أبي الرقعمق، وأبي القاسم الواساني، وابن لنكك، وأبي الحسن السلامي، وابن سكرة الهاشمي، وابن الحجاج، وغيرهم، وقد ترددنا كثيرًا في أن نجاري بعض أدباء هذا العصر فنحذف هذا المجون، ولو من بعض نسخ الكتاب، ولكنا لم نشأ أن نحذف شيئًا مما في هذا الكتاب من المجون- كما يفعل بعض الناشرين، تحرجًا منهم وتأثمًا زعموا، وحرصًا على مكارم الأخلاق ظنوا- لأنا لا نؤلف كتابًا نختار فيه ما نشاء وندع ما نشاء، وإنما نحقق نصًّا قيده صاحبه في زمن كان الناس فيه أشد تحرجًا من هذا الزمن الذي نعيش فيه، ولأنا لا نرى من حقنا أن نتصرف في كتب الناس ثم نبقيها منسوبةً إليهم، فيجيئوا يوم المعدلة يتعلقون بمن ظلمهم يجادلونه عن أنفسهم، والله يعلم أننا لا نقل عن هؤلاء المتأدبين الذين يفسدون كتب الناس؛ تحرجًا من المجون، ولا حرصًا على مكارم الأخلاق، ولأن الغرض من نشر هذا الكتاب، واحتمال الجهد الجاهد

في تحقيقه، والصبر على الكثير مما يغري بعضه بالانصراف، إنما هو أن ندل قراء الأدب العربي على الحياة الأدبية والحياة الاجتماعية والسياسية في هذه الحقبة التي كان هؤلاء الشعراء يعيشون فيها، وأن نضع بين أيديهم النصوص التي تدلهم على ما يتوجهون إليه من مناحي البحث، فلو أننا سمحنا لأنفسنا بحذف شيءٍ مما اشتمل عليه الكتاب، لكنا قد أضعنا هذه الغاية، وكنا كمن يجهز جنديًّا للقتال، فيضع في يده سيفًا من الخشب، ويقعده على صهوة جوادٍ من قصب»(٢٠).

إن ذلك المسكوت عنه يفصح عن تلك العصبة- الرواة والمستشرقين والمحققين- التي وقفت في معظم الأحايين موقفًا معاديًا من "الآخر"، فعلم تحقيق النصوص ينبني على تقديم النص التراثي على أقرب صورةٍ لما تركه عليه مؤلفه، لكن النظرة المتفحصة لدور التحقيق تكشف عن أثر هؤلاء المحققين في ضياع شطرٍ كبيرٍ من الشعر العربي، فلقد أخذ هؤلاء المحققون على عاتقهم تنقيح ذلك الإرث الثقافي، وتقديمه للقارئ دون سلبٍ أو عوارٍ في القالب الفكري الذي تمخضت عنه عقول أولئك المبدعين، فأعملوا فيه الحذف والتهذيب قبل أن يحين قطاف ثمرة ذلك الإبداع من لدن المتلقي، ولم يراعوا في صنيعهم أن "المسكوت عنه" الذي أقصوه عمدًا من بنية تلك النصوص التراثية يمثل مرآةً كاشفةً لطبيعة ذلك الإرث الثقافي، لقد انتفضت هممهم، وأطافت عزيمتهم حول حمى الإبداع وذراه، فراحوا يعملون معاولهم في بنية ذلك الإرث الثقافي العتيد؛ تنقيةً له من مزاعم مفترضة ارتأوها -آنذاك- تقض أركانه، وتفت-من وجهة نظرهم- في عضده، لقد ذَمَّرَهُم الوازع الديني على مَحو معظم تلك الأشعار، وحضهم على نفيها، لقد كانت تلك النتاجات الأدبية- التي تحمل سمت السلب والرفض- ودور الرواة في المحو كفرسي رهان، ارتأى فيها عصبة الرواة أن تكون لهم الغلبة القاطعة دون الشعراء، لقد مثلت تلك الآليات مرقاة الخلود لذلك الطود الثقافي الشامخ من وجهة نظرهم، لقد شكل دور الرواة في الشعر العربي القديم حدثًا فاحصًا ينم عن آليات التفكير التي تعاورت عقولهم آنذاك، لقد سد هؤلاء الرواة على الثقافة العربية معظم مسارب الإبداع، وحجبوا عن نواظر المتفحصين في ثنايا تراثهم ضياء الشاعرية المفتنة، ولعل المتفحص للتراث الشعري يلحظ أن ذلك الإرث الثقافي العظيم الشأو لم يكن معبرًا عن معظم الاتجاهات الفكرية السائدة، ولم يند بهم الانتماء البالغ لثقافاتهم عن مطارق التحفظ الأعمى، ومسالك المحو.

لقد مثل الشعر " المسكوت عنه" في تراثنا العربي خير تَفْسِرَةٍ عن كياناتهم وثقافاتهم، فلقد سال إبداع العرب في شعرهم كالماء القراح، الذي مثَّل دور الرواة والمستشرقين عقبات تعترض سبيل ذلك المجرى الذي يأتلق بفيوض الشاعرية.

وتطرح تلك القراءة إشكاليات عدة، من بينها:

هل أزال هؤلاء الرواة والمستشرقون ستار الغيمة والعتمة التي ظللت ذلك الطود الثقافي الشامخ؟ وهل أبان النتاج الثقافي الشعري عما يعتور العقل العربي من قضايا وفلسفات وإشكاليات؟ وهل أفصح المروي من ذلك التراث الشعري عن فضاء الفكر العربي؟

إن المتأمل لتراثنا الشعري يلحظ الدور البالغ العظيم الشأو للمسكوت عنه في الإبانة عن قضايا الفكر العربي، وإواليات العقل المتحكم في معطيات الثقافة والنتاج الفكري.

لقد استطاع ذلك "المسكوت عنه" أن يفصح بجلاءٍ وشفافيةٍ عن مدى العوار الذي يضرب في جذور الفكر العربي، ويتصدى لتوجيه الذائقة العربية بما يتفق مع معطيات البيئة والثقافة والعِرْق والدين.

لقد نصب هؤلاء الرواة والمستشرقون حبائلهم للنتاج الشعري، ورموا بعضه بسهام الشطط والدونية، وناصبوا معظمه العداء؛ إذا جاء على غير منهجهم وطرائقهم وإواليات أفكارهم ومعتقداتهم الدينية والفكرية.

تحاول تلك القراءة أن تخلص إلى الوقوف على تلك المسافات الفاصلة بين الرواة والمستشرقين والمحققين، وهل أنصف المحققون تراثهم العربي من غلواء الحذف والإقصاء، وهل وقف المستشرقون موقف السلب والعداء من ذلك التراث؟

لم تُقِلْ تلك العصبة النتاج الشعري التراثي من عثرة الضياع؛ فقد أناخوا به في مجاهل التيه، وأوغلوا في مسارب الفقد، وصارت مراوحات الخلق الفني الجديد لتلك النصوص التراثية تعد شاهدًا على موقف السلب، وأداةً كاشفةً عن الوجه الآخر لذلك العقل الجمعي.

لقد شكلت تلك الإواليات التي وظفتها تلك العصبة في بعض الأحايين أداةً طاعنةً في عضد ثقافتنا العربية، لقد شكل صنيعهم- من وجهة نظرهم- منحًى تطهيريًّا قوضوا به دعائم تراثهم العربي.

لقد تفاوتت الآراء التي حللت وجهات المستشرقين في معالجتهم تراث العربية، فمنهم مغالٍ، ومنهم مقتصدٌ، كما سلف القول، وقد نزع هؤلاء المستشرقون إلى تحري الدقة، وعملوا على تمحيص النص، ولعل أول ما نلتقيه في ثنايا تلك القراءة هو تقييم قراءة ذلك المستشرق الإنجليزي "مرجليوث"[٢١] الذي يعد علمًا من أعلام المدرسة الاستشراقية، وقد أثرى المكتبة العربية بجملةٍ من الذخائر، وتصدى لتحقيق غير كتاب[٢٢]، وتنهض تلك القراءة على تحليل منجزه في تحقيق ديوان سبط ابن التعاويذي الذي قابله على نسختين ، ولم يقف بنا على مقابلة تلك النسخ التي اعتمد عليها في تحقيقه، والأمر اللافت في ذلك المنجز التحقيقي هو ما قام مرجليوث بحذفه "عمدًا" من الديوان، وذلك وَفْق ما نص عليه في مقدمة التحقيق.

إن تلك العلاقة الوثقى بين الأدب والأخلاق هي التي أوجدت بدورها مناطق مجهولةً معتمةً صماء، على المتلقي ألا يخوض في غمارها، ويكتنه أسرارها، ويفتض مغاليقها، وقد زخر تراثنا العربي بتلك المساحات الرحبة التي حظي بها المبدعون القدامى، وقد عبروا فيها عن طبائع عصرهم ورؤاهم وقد أفاضوا على أدبهم لغةً مكتنزةً بالدلالات، ولكن معظم المتصدين للنصوص في عصرنا الحديث؛ سواء أكانوا من العرب أم من المستشرقين، قد أخذوا على عاتقهم تنقيتها من تلك الأصوات الزاعقة – من وجهة نظرهم- التي رفعت سجف الأخلاق، وأتت على ذكر تعابير ممنوعة حسْب قواعدهم، وقد تناسى هؤلاء القائمون على نشر تلك النصوص وتحقيقها أن ذلك "المسكوت عنه" هو العتبة الرئيسة، والأداة الفاعلة الناجزة في قراءة تلك النصوص، والوقوف على مكنوناتها، فالمسكوت عنه قادرٌ على سبر أغوارها، واستنطاق دوالها بصورةٍ فاعلةٍ لا تتحقق للمذكور عبر ثناياه.

الأخلاق و"المسكوت عنه":

ولعل من بين أهم شعراء العربية الذين وُضعوا تحت مقصلة الحذف والإقصاء لشعرهم هو الحسن بن هانئ الحكمي الشهير بأبي نواس، «فإذا تطلعنا ديوان أبي نواس نرى أن الناشرين حذفوا الكثير من القصائد التي تحث على المعاصي والأفعال غير الأخلاقية، لكن هذه القصائد المحرمة لأبي نواس تشكل جزءًا كبيرًا من شعره، وقد بلغ عدد القصائد المحرمة حوالي ثلاث مائة مقطوعة تعرضت للحذف والطمس والتشويه، وإن وجدت هذه القصائد تراها مشوهةً مملوءةً بالحذف والأخطاء الإملائية والنحوية، دليلًا على أنها من وبائها وجحيمها»[٢٣]. وقد جهد الباحث محمد ثابت في جمع تلك النصوص التي أُسقطتْ عمدًا من الديوان، لم يكن أبو نواس فُرَدَةً في ذلك الصنيع، فقد طالت دواوين شعراء غيره حالات شتى من الحذف القسري، والتشويه المتعمد، ولعل من بين أبرز الأمثلة الدالة على هذا الصنيع ما فعله كرم البستاني محقق ديوان صفي الدين الحلي (طبعة صادر) الذي حذف بدوره أبيات الحمضيات ضنًّا بالأخلاق؛ إذ نراه يقول: «ويستدل من الأبواب التي وضعها في ديوانه على أنه لم يترك فنًّا من فنون الشعر إلا ونظم فيه حتى الإحماض، وهو ما أزلناه من الديوان ضنًّا بالأخلاق»[٢٤]، ولم يقتصر التشويه المتعمد على الحذف فحسب، بل امتد إلى إخراج نسخةٍ مشوهةٍ لا توسم بالضبط التام، ولم يكن كرم البستاني فردةً في الصنيع نفسه، بل سار على

دربه الدكتور محمد حوّر الذي أعاد تحقيق الديوان، وحذف كذلك الحمضيات معللًا صنيعه بقوله: "اشتمل الديوان على فصلٍ في الإحماض والمجون، هو الفصل الثالث من الباب الثاني عشر، فيه خدشٌ للحياء، وإسفافٌ في القول، وإن مثل هذه المادة فيها أخذٌ وردٌّ عند المحققين، فمنهم من يرى أن المادة المحققة ليس لواحدٍ أن يتصرف فيها –زيادةً ونقصًا-، وإنما هي ملك صاحبها، ويجب أن تنقل كما هي، وبأمانةٍ تامةٍ؛ لأنها صورةٌ له ولعصره، ولا يخلو هذا الرأي من صرامةٍ ووجاهةٍ، ومنهم من يرى أن المادة المحققة صورةٌ لصاحبها وعصرها "نعم"، ولكن ليس بالضرورة أن تنقل كل شيء، بغض النظر عن قيمه المعنوية والموضوعية والفنية، وإنما يجري عليه التهذيب الذي يتصل بالأخلاق والقيم، ولا يؤثر على التقييم العام للمادة في جانبها الفني، ولهذا الرأي-أهميةٌ وقيمةٌ- وهو ما أميل إليه، وآخذ به، ولذلك وجدتني بعد أن حققت الديوان كله أميل إلى إسقاط هذا الفصل من الديوان مني إلى إثباته"، لقد ارتأى المحققان اللذان عاشا في القرن العشرين ضرورة حذف باب الإحماض؛ صونًا للأخلاق، أما صاحب المطبعة التي تصدت لنشر الديوان نفسه –ديوان صفي الدين الحلي- فقد ارتأى إثبات هذه الأبيات بطريقة تتناسب والحفاظ على النص؛ إذ يقول: «إنه بحسب فهرسة هذا الديوان يجب أن تتلو القصيدة السالفة الذكر قصيدة الإحماض والمجون، غير أنه لما كان موضوعها يستهجنه بعض القوم، رأيت الأصوب إثباتها آخر الكتاب، فيكون مقتنيه مخيرًا عند التجليد بين إبقائها وحذفها؛ إذ إنني لم أرَ نفسي حرًّا لاختيار حذفها مطلقًا؛ لأنه تصرفٌ لا تجوزه العادة، وتنبيهًا للمطالعين قد علقت هذه الملاحظة»[٢٥].

وقد أثبت ناسخ هذا الديوان الأبيات على الرغم من اعتراضه على مضمونها؛ إذ نراه يقول: «إنني أستغفر مما أدنس به قلمي هذا بكتابة هذا الفصل الذي لن يوجد بينه وبين عدم الآداب فصل، ولكنني أكتبها لأجل إيضاح رداءته لدى من يعثر على تلاوته»[٢٦].

لعل مبعث تأليف **صفي الدين الحلي** لتلك الأبيات في المجون والإحماض كان تقليدًا للشاعر ابن الحجاج الذي كان علمًا على هذا النوع من الأشعار، فقد جاء في مفتتح ذلك الفصل: «مما اقترح عليه نظمه على نمط ابن الحجاج امتحانًا له، قال وقد كلفه مخدومٌ له متابعة أبي عبد الله بن الحجاج في أبياته التي منها يقول:

كل نواة من بسرةٍ خلقت إلا نواة استك بلا بسرة

فنظم لذلك ...» [٢٧].

إن أبا عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج الذي تعفف المحدثون من إيراد شعر الصفي الحلي لأنه قد نسج على منواله، قد ترجم له الثعالبي ت(٤٢٩هـ)، إذ يقول: «هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولا يبني جل شعره إلا على سخفٍ، فإنه من سحرة الشعر، وعجائب العصر، وقد اتفق من رأيته وسمعت به من أهل البصيرة في الأدب وحسن المعرفة بالشعر، على أنه فرد زمانه في فنه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه، ولم يركاقتداره على ما يورده من المعاني التي تقع في طرزه، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها في سلك الملاحة والبلاغة، وإن كانت مشوبةً بلغات الخلديين والمكديين وأهل الشطارة، ولولا أن جد الأدب جد وهزله هزل كما قال إبراهيم بن المهدي، لصنت كتابي هذا عن كثيرٍ من كلام من يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحرم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره، وتستملح الكبراء ببنت طبعه، وتستخف الأدباء أرواح نظمه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه، ومنهم من يغلو في الميل إلى ما يضحك ويمتع من نوادره. ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء، فلم يخل قصيدة فيهم من هزله ونتائج فحشه، وهو عندهم مقبول الجملة، غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام، مجابٌ إلى مقترحه من الصلات الجسام، والأعمال المجدية التي ينقلب منها إلى خير حال، وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر، تحكم الصبي على أهله، ويعيش في أكنافهم عيشةً راضيةً، ويستثمر نعمةً صافيةً ضافيةً، وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال، وأسرى من الخيال»[٢٨].

المرأة والمسكوت عنه:

مثَّل الأدب الرحم الثر الذي تحدرت منه نوازعنا ومدركاتنا، وتشكلت في إهابه رؤيتنا لذواتنا وفلسفاتنا وكينونتنا، ولقد تخلقت عَلاقة وثيقة بين الفنون والأخلاق، ارتأى القائلون بها في كل ما يتناول الكيان المادي للجسد الأنثوي خروجًا سافرًا عن التقاليد ومعطيات الأخلاق، وانعتاقًا من سمت الأدبية، لقد حلقت في فضاءات ذلك "الأدب الإيروتيكي" الذي يتناول الكيان المادي للمرأة، إشكالياتٌ حبلى بأسئلةٍ حائرةٍ عن أبعاد علاقة الأدب بالأخلاق في تراثنا الأدبي، ومقارنته بنظيره الحديث والمعاصر، وكيف تَشَكَّل الجسد الأنثوي في كتابات الشعراء القدامى، وما العتبات التي كان لزامًا على المبدع ألا يتخطاها، وما الحدود التي طوف بها في تعبيراته وصوره الفنية لذلك الحضور المادي للمرأة، وهل حلق الأدب العربي القديم "شعرًا ونثرًا" في فضاءات البوح أم الترميز؟ وهل تغايرت مساحات الحرية قديمًا في التعبير عن ذلك الجسد الأنثوي عن مثيلاتها في ثقافتنا الآنية؟

لقد أفرزت الثقافة العربية جملةً ثرةً من الكتابات التي دشنت أدبًا إيروتيكيًّا بالغ الوضوح والفاعلية في بيئته، ولعل استقراء ذلك النتاج الشعري التراثي يقف بنا على أسماءٍ شتى كرَّست لذلك الحضور المادي للجسد الأنثوي، وكان ذلك الكيان المادي هو قوامها الرئيس الذي شكل مادتها بفنيةٍ وطواعيةٍ، ومن بين أشهر تلك المؤلفات كتاب "نزهة العمر في التفضيل ما بين البيض والسود والسمر" للإمام السيوطي ت ٩١٢هـ، الذي يمثل فحواه مختاراتٍ شعرية ونثرية من العصر الجاهلي حتى زمن المؤلف "ق ١٠هـ" مثلت بدورها جماعًا لأقوال الأدباء والشعراء في ذلك الكيان المادي للمرأة، وقد صنفه المؤلف على غرار نقائض بين أنصار كل صنفٍ من صنوف النساء الموصوفات في العنوان ومعارضيهم، يسوق فيه كل فريقٍ حجته على نسقٍ شعريٍّ في حلةٍ فريدةٍ، ومن ثم، فإن الكتاب يمثل بدوره مرآةً صادقةً للعقلية العربية تجاه الجسد الأنثوي عبر عشرة قرونٍ كاملةٍ، وتتغيا تلك الزاوية سبر أغوار تلك النصوص الأدبية؛ وقوفًا على منهج القدامى من التعبير عن ذلك الكيان وطرائقهم وآلياتهم وحدود "المسكوت عنه" في إبداعاتهم.

ينبغي علينا أن نعرج على مفهوم ذلك الأدب الإيروتيكي، فكلمة (Erotic) تعني «المثير للشهوة الجنسية، وقد ذهب بعض الباحثين إلى وضع تعريف للإيروتيكية، فقال هي: "أدب المواخير"، ومن الدارسين من يرى أن الكتابات "الإيروتيكية" قد كثرت في الأدب الحديث، إلا أن هناك من يرى أن هذا النوع من الكتابات تعود جذوره إلى الكتاب المقدس، وخاصةً ما جاء في سفر (حزقيال)»[٢٩].

لقد كان الأدب العربي غاصًّا بدوال عديدةٍ تتعارض بدورها مع معطيات ثقافتنا الآنية، قد شكَّل فيها المبدعون خارطة إبداعاتهم وَفْق رؤاهم ومنظورهم وثقافتهم وآنيتهم، وأبدعوا أدبهم في أطرها، وقد ارتأى المعاصرون فيها تابوهاتٍ أخلاقيةً حظرها بعضهم، وجعلها قارةً في خانة "المسكوت عنه" في معطيات ثقافته، وأناخ بها بعيدًا عن مضماره وحلبته.

لقد شكل جسد المرأة في تراثنا العربي مفردةً ملأى بالمعاني، فتارةً يُتداول بوصفه رمزًا، وتارةً يَتعامل معه أولئك المبدعون بوصفه حقيقةً ماثلةً أمام نواظرهم.

إن الإشكالية التي يعالجها ذلك الطرح مفادها:

- هل ينفصل الفن عن الأخلاق؟ وهل ستتحول الأخلاق إلى معطًى نقدي لتؤطر بدورها الحكم على جودة العمل الفني وقيمته؟
- كيف نظر القدماء إلى تلك الحدود الشائكة بين عالم الفن والأخلاق؟
- هل تتحدد قيمة العمل الأدبي وَفْق معطيات الأخلاق؟
- كيف عبر القدماء عن ذلك الكيان المادي في أشعارهم؟ وهل بدلت الثقافة العربية الإسلامية، وكذا تحول العرب إلى الإسلام نظرتهم لذلك الكيان المادي؟

ولعل أول ما نلتقيه في هذا المضمار هو رأي أفلاطون الذي «رفض بشكلٍ قاطعٍ الفنون التي لا تحث على الفضيلة وتفسد العقول؛ لأنها يجب أن تطبع بصورة الخير»[٣٠]، إن أفلاطون قد مهد بنظرته تلك لمن تلاه من الأجيال تلك النظرة الوثيقة بين الفن والأخلاق، وشاد دعائم الصلة الوثقى بينهما، الأمر الذي تبناه جملةٌ من الشعوب والحضارات حتى وقتنا الحاضر.

لقد خلَّف لنا ديوان شعر العربية أوصافًا كُثرًا في وصف الكيان المادي للمرأة، وتباروا في التغزل بها، والتشبيب بمحاسنها، وقد مخَّص النقاد المعاصرون الغزل الذي صدر عن هؤلاء الشعراء في غير عصرٍ من عصور الأدب، وقسموه بدورهم إلى قسمين:

- غزل صريح
- غزل عفيف.

يتناول الأول منهما أوصاف الكيان المادي للمرأة، ويُعنى بوصف محاسنها ومفاتنها المادية، وينصرف إلى الهيام بأجزاء جسدها التي تحمل جمالًا مائزًا، ومن بين أعلام ذلك النوع: امرؤ القيس، وعمر بن أبي ربيعة، وأبو نواس، وبشار بن برد، والحكم بن عبدل، وينصرف القسم الثاني إلى التغزل في محاسنها النفسية والمعنوية.

ولعل التأمل في فحوى تلك الأشعار يفضي بنا إلى نتيجةٍ مفادها أن الغزل بنوعيه كان يتناول الأوصاف المادية للمرأة؛ سواءٌ أكان غزلًا عفيفًا أم صريحًا، فالشاعر الذي ينتمي بدوره إلى شعراء الغزل العفيف قد يأتي على ذِكر تلك الأوصاف المادية في محبوبته في غير موضع من ديوانه، وينصرف ذلك التقسيم الشكلي في حقيقته إلى قياس النسبة الغالبة على معظم الأبيات حتى ترجح نسبتها لأيٍّ من أنواع الغزل، فكل ما تناول المرأة قد دار في فلك تلك الدوال الحسية المادية.

لقد شاع وصف المحاسن المادية للمرأة في ثنايا الشعر العربي القديم، ولم يتحرج العرب من ذكرها، ولم تكن "مسكوتًا عنه"، ولعل من بين أبلغ الأمثلة على ذلك الصنيع قصيدة "البردة" التي أنشدها كَعْب بن زُهَيْر بين يدي الرسول ﷺ، الأمر الذي يؤكد على أن الغزل كان تقليدًا اعتياديًّا في نهج القصيدة العربية، وإلا لما استطاع الشاعر أن ينشدها في ذلك السياق، ويقول في مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلت	إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة	لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت	كأنه منهل بالراح معلول

لقد وقف النقاد المحدثون على ثُغر الإبداع في شعر العربية، ونصبوا حبائلهم للصريح من عباراته، الذي يتناول فضاءاتٍ محظورةً في عقلهم الجمعي وثقافتهم الآنية، فحظروا العديد من الأشعار التي تتناول ذلك الكيان المادي للمرأة، وصنعوا منه تابوهًا أخلاقيًّا يتنافى مع حصول الفنية، وأطلقوا على أولئك الشعراء الوصَّافين لجسد المرأة- في وضوحٍ وشفافيةٍ- أحكامًا تخرج بهم من حظيرة الإبداع، إن تلك التعابير التي تناولت الكيان المادي للمرأة مثَّلت -من وجهة نظرهم- دنسًا يجب أن يجتث من بنية القصيدة، وتستأصل شأفته لتتطهر تلك الإبداعات من ذلك السلب الذي يعتور بنيتها، ويقضي على فنيتها وجودتها، ويحول دون الحكم عليها بالمشروعية والقبول.

لقد ارتأى المحدثون في تلك التفصيلات المادية لجسد المرأة في الشعر العربي القديم، سبيلًا تقوض دعائم الإبداع وتقض أركانه، وتنفي موجباته، وتجعل منه «مسكوتًا عنه».

ولعل المتطلع في كتب التراث العربي يلحظ ذلك البون الشاسع في حرية التعبير التي عدها المعاصرون بمقياس آنيتهم ومعاصرتهم خروجًا سافرًا عن الأخلاق والتقاليد، فكتاب الأغاني غاصٌّ بالمفردات التي ينبو اللسان عن ذكرها -

من وجهة نظر أولئك المحدثين-، ومن بين تلك الأمثلة الدالة على سبيل المثال وليس الحصر، ما ورد من أشعار الأموي الحكم بن عبدل (ت ١٠٠هـ) الذي يقول[٣١]:

وأنعظ أحيانا فينقد جلده ... وأعذله جهدي فلا ينفع العذل
وأزداد نعظًا حين أبصر جارتي ... فأوثقه كيما يثوب له عقل
وربتما لم أدر ما حيلتي له ... إذا هو آذاني وغر به الجهل
فآويته في بطن جاري وجارتي ... مكابرة قدما وإن رغم البعل

إن تلك التعابير الممنوعة في وقتنا الحاضر تتنافى مع إواليات زماننا وثقافتنا، ولعل من الإجحاف أن نحكم على تلك النصوص من منطلق إهابٍ زمنيٍّ مغايرٍ لظروف إنتاج ذلك الخطاب الأدبي، وأن نُحَمِّل النصوص ما لا تتحمله من معطيات زماننا.

إن تلك النصوص الممنوعة، والتعابير المرفوضة، لم تفرز ثقافةً محرمةً في زمن إنتاجها، بل شكلت بدورها مرآةً كاشفةً تجلي طبائع أولئك الشخوص في الزمن القديم، ومفردات تلك العصور وأزماتها وإشكالياتها التي انخرط مبدعوها في بوتقتها، وقد أطلق القدماء لقب " أغزل بيت قالته العرب" على بيت "جَرِير بن عطية الخطفي" الشاعر الأموي، حيث يقول[٣٢]:

إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله أركانا

لقد خلع المحدثون على تلك التعابير المرفوضة التي تتناول جسد المرأة لقب "المسكوت عنه"، وأعملوا فيها الحذف والإقصاء، ويأتي صنيعهم جنبًا إلى جنب مع التابوهات السياسية والدينية، وعدوها انحرافًا عن سلك الإبداع وتقاليد الشاعرية، وحرَّموا على "الآخر" الولوج في مسالكها، وتناسوا أن ذلك "المسكوت عنه" هو الأداة الفاعلة في قراءة تلك النصوص، واستنطاق دوالها، والوقوف على حقيقة أبعادها وزواياها.

إن تلك المحاذير قد حولت مسالك الإبداع إلى مضايق ينحرف فيها تأويل دواله الفاعلة، وتستعصي فيه مفرداته على القراءة الفاحصة المتأنية التي تسبر أغواره، وتقف على مراده، إن ذلك "المسكوت عنه" المتمثل في الدوال المادية لجسد المرأة في النص الأدبي التراثي، قد اختبأت في ظلالها وتوارت في طياتها تفسيراتٌ عدة تتأرجح بين الواقعية والرمزية، ومن بين أشهر الأمثلة الدالة على ذلك القصيدة الدالية لعمر بن أبي ربيعة التي يقول فيها:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد
زعموها سألت جاراتها ... وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتني تبصرنني ... عمرك الله أم ذا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها ... حسن في كل عين من تود

إن المتفحص لتلك القصيدة يلمح تلك الصفات المادية الحسية للمرأة ظاهرة بشكلٍ لافتٍ، ويرى تلك الأنثى التي تضارع الرجال في جرأتها، بل وتتفوق عليهم، إنها المرأة المتحررة، هي الطالبة وليست المطلوبة، ولكن تلك المرأة التي أفاض عمر في وصف اللقاء بها، والتحدث بلسانها، قد انتهت في رأي النقاد إلى دالٍّ بالغ القوة والوضوح على رمزية المرأة في القصيدة العربية القديمة، فذلك الجسد الأنثوي الشهي قد استحال إلى طاقةٍ رمزيةٍ كثيفة تحيل إلى عوالم تنسحب على إشكاليات سياسيةٍ اختبأت في ظلالٍ أنثويةٍ، فخارطة ذلك الجسد الأنثوي كان مرتعًا خصيبًا، وحقلًا دلاليًّا ثرًّا يومئ لإسقاطاتٍ شتى أرقت كيانات أولئك المبدعين.

لقد مثَّل جسد المرأة في نظر أولئك المحدثين أيقونةً تستدعي النفي والاستلاب، وتستنفر حرصهم البالغ وغيرتهم المضاعفة؛ لبتر معظم تلك النصوص الممنوعة ومصادرتها.

ولعل ما سبق يفضي بنا إلى إشكاليةٍ مفادها:

- هل اختلفت مساحات حرية المبدع بين القديم والحديث؟

إن تلك المحاذير القارة في العقل الجمعي في ثقافتنا الآنية تجاه ذلك الكيان المادي الأنثوي لم تكن حاضرةً في الوجدان والوعي في الحضارة الإسلامية منذ قرون. لقد أدرك القدماء أن تلك المساحات الممنوعة- في نظر المحدثين- هي نتاج ثقافتهم وكياناتهم وطبيعتهم النفسية، ومقوماتهم الزمانية والمكانية التي لا يمكن الفكاك منها، ولا التنصل من تبعاتها، إن استنطاق تلك النصوص الممنوعة لا يفضي بنا- على أية حال- إلى اكتناه الوجه الآخر المشوه لثقافتنا- على حسب زعم بعضهم- بل ينسحب بنا إلى مداراتٍ واضحةٍ من التأويل والتفاعل مع مفردات ذلك الإرث الثقافي، وإعادة تقييمٍ بناءٍ لإواليات ثقافتنا الآنية.

ويتغيا البحث أن يستبطن رؤية القدامى لذلك الكيان المادي للمرأة، وكيف جسدوه في أدبياتهم؟

ولعل مناط القراءة ينصرف إلى درس واحدٍ من بين أهم أدبيات إرثنا الأدبي الذي يتناول المنظور لذلك الكيان المادي الأنثوي في شعرنا العربي، والذي سيقف في مداراتٍ مضادةٍ ينسحب بعضها بالسلب، وتارةً بالإيجاب على صفات ذلك الجسد الأنثوي، وقد صيغ هذا النص الأدبي على شاكلة معارضة بين فريقين، يبين كل منهما موقفه، ويبرز أسبابه ودوافعه من خلال إهابٍ شعريٍّ ثر.

إن المتأمل في ذلك الكتاب الذي دشنه الإمام السيوطي سينتهي إلى نتيجةٍ تثير الدهشة والعجب، ولعل مبعثها أن ذلك المنظور الذي أبان عنه الفريقان في غمار دفاعهما الشعري عن موقفهما من ذلك الجسد الأنثوي لا تتغاير بدورها عن إواليات رؤيته في عصرنا الحالي، ويكمن البون الشاسع في طرق الإفصاح والمعالجة، فالقدماء قد وقفوا موقفًا صريحًا ينم عن فهمٍ عميقٍ لمعطيات زمانهم وبيئاتهم وثقافتهم، أما "الآخر" المعاصر فقد وقف موقفًا مضادًا من ذاته وإواليات فكره وثقافته، إن رؤية "المحدثين" لذلك الكيان المادي الأنثوي تنم عن حالةٍ قصوى من التشظي أمام الذات، والتخبط في مسارات التعبير، وضبابية موقفهم من ذواتهم وكينونتهم.

إن رؤية المحدثين تجمع بين طرفي النقيض، وتجذب أشتاتًا متفرقةً في بوتقةٍ واحدةٍ، فالكيان الأنثوي يمثل غاية النشوة، وأقصى درجات الفتنة، ولكنه -في الوقت نفسه- يحمل بذور "المحرم"، ويدلف إلى عتبات "الممنوع".

ولعل أول ما يثير دهشة المتلقي في هذا السياق هو طبيعة ذلك الكتاب موضوع الدراسة، والذي أفرزه علمٌ بارزٌ من أعلام العربية، إن صدور ذلك النسق التأليفي من قامةٍ أدبيةٍ كالسيوطي تستدعي بدورها إلى الذهن جملةً من الملاحظ، لعل من أبرزها أن إوالية المعالجة لذلك الموضوع المتعلق بالأدب الإيروتيكي لم يكن محرمًا على أمثال السيوطي من القامات الأدبية والدينية التي حظيت بشأوٍ بالغٍ في زمانها، ولم تكن "مسكوتًا عنه" في زمانهم، فأوساط المثقفين لم يروا في معالجة ذلك النسق غضاضةً وحرجًا، بل انخرط بعضهم في معالجته وَفق مفردات ثقافتهم.

ولم يكن السيوطي (ت٩١١هـ) فُرَدَةً بين علماء زمانه- كما أشرت سابقًا- فلقد أفرد ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) كتابًا للحديث عن الحب والمحبوبين أسماه "روضة المحبين ونزهة المشتاقين".

لقد اتخذ الشاعر العربي القديم جسد المرأة قالبًا تتموضع فيه اتجاهاته الفكرية والسياسية التي ينفثها في غضون قصائده، فلقد صار ذلك الجسد إهابًا غضًّا حمَّال أوجهٍ تأويلية عدة تطوّف في مدارات الرمزية بعيدًا عن الواقعية والحسية.

ولم يكن جسد المرأة هو الأشهى والأكثر فتنةً وغوايةً واستلابًا؛ فقد ضارعه في مُعظم الأحايين (جسد الرجل)، وقد أدلى الشعراء بدلوهم في **"الغزل بالمذكر"**، ولم يكن هو الآخر «مسكوتًا عنه»، وتحول بعضهم عن الافتنان بجسد الأنثى الخصيب، واتخذوا من جسد الغلمان مستراحًا لشهواتهم، وخلعوا على تلك المواصفات الشكلية الذكورية صفات الجمال، الأمر الذي التبست به تلك الأشعار -في مُعظمها -مع تلك التي سُطرت في فتنة جسد الأنثى.

وقد أورد الإمام السيوطي ضمن كتابه أشعارًا تنحصر في إطار الممنوع والمسكوت عنه في أطر ثقافتنا الآنية.

إن حسن المرأة في الشعر القديم كان مرتبطًا ارتباطًا بالغًا بمكانتها التي تبوأتها في ثنايا ذلك المجتمع؛ فلعل تلك العلاقة الطردية التناسبية بين قوة المرأة ومكانتها في المجتمع، والتعبير عنها، كانت أكبر بكثيرٍ من المساحات التي تحظى بها المرأة في عالمنا الحديث والمعاصر.

ولعل تلك النصوص الدينية التي وضعها رجال الحديث كانت تمثل في حقيقتها حركةً مناهضةً لقوة المرأة ونفوذها الذي تتمتع به، الأمر الذي دعاهم إلى تقويض دعائم حريتها وسطوتها.

وإذا كانت المرأة تشكل مادةً خصبةً للكيان الذكوري، فأين النتاج الحقيقي الذي أبدعته هذه الذات الأنثوية من أشعار؟

إن المتأمل لديوان الشعر العربي القديم يقف على نسبةٍ ضئيلةٍ من أشعار النساء من أمثال الخنساء، وهي –في واقع الأمر- لا تشكل نسبةً حقيقيةً صادقة لأولئك المبدعات عبر عصور الأدب المختلفة؛ لقد شكل شعر النساء –في معظم الأحايين- "مسكوتًا عنه" في بنية تراثنا الشعري، تعامل معه الكيان الذكوري بالحذف والإقصاء.

وتخلص تلك الأسطر إلى جملةٍ من الملاحظ مفادها:

- تمتعت المرأة في الأدب العربي القديم بحضورٍ لافت في بنية القصيدة العربية، ولم تمثل في معظم الأحايين "مسكوتًا عنه" في الشعر العربي القديم.

- انقسم الغزل الذي يتناول المرأة في القصيدة إلى نوعين: عفيف وصريح، انصرف كلاهما -في معظم الأحايين- إلى ذكر التفاصيل المادية لجسد المرأة.

- عبر الأدب العربي القديم في أزهى عصوره الأدبية عن حرية المرأة وتحررها، فظهرت المرأة المتحررة التي صورها لنا "عمر بن أبي ربيعة".

- تمتعت المرأة قديمًا بحريةٍ واسعةٍ أكبر من تلك التي حظيت بها في عصرنا الحالي.

- تمتع القدماء بمساحاتٍ من الحرية للتعبير عن ذلك الكيان المادي الأنثوي على الرغم مما تمتعوا به من حظوةٍ ومكانةٍ دينيةٍ وأدبيةٍ رفيعةٍ.

ولم تقف حدود الحذف والإقصاء عند حدود الرواة والمستشرقين والمحققين فحسب، بل ولجت الموسوعات الشعرية العربية في ذلك المجال السلبي، ولعل من بين أبلغ الأمثلة الدالة على ذلك شعر **صاعد البغدادي** الذي ورد في الموسوعة الشعرية؛ فقد «ظل شعر صاعد –على أهميته في حياته الأدبية- متفرقًا في المصادر، غائبًا في ثناياها، وفي سنة ٢٠٠٣م صدرت الطبعة الثالثة للموسوعة الشعرية الإليكترونية عن المجمع الثقافي بمدينة أبي ظبي، وقد نسب لصاعد فيها (٣٣) مقطوعة ونتفة تحتوي على (٧٥) بيتًا شعريًّا على أنها مجموع شعر صاعد، مع أن شعر صاعد في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام وحده يزيد على التسعين بيتًا، والأمر نفسه في أحدث طبعة للموسوعة الشعرية التي صدرت عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ٢٠٠٩م بعنوان موسوعة الشعر العربي، وقد حذف من مجموع شعره بعض المقطوعات المكررة لتغدو (٣٠) مقطوعة ونتفة من شعر صاعد وسواه.

وليس هذا فحسب بل أغلب المقطوعات المذكورة له مشوهة تشويهًا غريبًا، فهي منقوصة –عن عمد- من أولها وآخرها، وإن بعض المقطوعات مفرقٌ في مقطوعتين أو ثلاث مقطوعات، وإن فيها خلطًا لما نسب له وما نسب إلى غيره، بل إن العبث يصل إلى زج ثلاث قطع ليست لصاعد مطلقا –بل إن بعضها سابق له بقرنين من الزمن- ضمن مجموع شعره الناقص»[٣٣].

إن كتب تراثنا العربي ملأى بالتعابير التي ارتأى فيها المعاصرون خروجًا سافرًا عن أخلاقيات العصر الحاضر؛ فكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني غاصٌّ بالألفاظ التي تبنو عن الأخلاقيات من وجهة نظرٍ معاصرة، ولم تقف تلك

المصطلحات الخارجة عائقًا أمام صدارته وجدارته بين كتب تراثنا الأدبي بعامة، إن تلك المصطلحات والتعبيرات التي عدها المعاصرون خارجةً نابيةً لا تعدو أن تكون سمتًا عاديًا، وظاهرةً تقربنا إلى نفسية أولئك الشخوص الذين غيبتهم القرون، ومرآةً كاشفةً لنفسياتهم وبيئاتهم ومزاجهم ومشكلاتهم، كان ينبغي على القائمين على إرثنا الثقافي أن يحتاطوا في معالجتهم له، وأن يعدوه عنصرًا مائزًا يتسم بالإيجاب والفرادة والقبول، وأن يستغلوا إمكاناته الكامنة؛ كي يجلوا لنا طاقات ذلك الإرث الكامنة في زواياه البعيدة عن نواظرنا وعقولنا.

وقد شكَّلَتْ كتب التراجم هي الأخرى شاهدةً على حجم المسكوت عنه في طياتها، فالمتفحص للتراجم ذاتها في كتب السنة والشيعة، يلحظ ذلك التفاوت البيّن في بنية ترجماتها، فقد مثلت التيارات الدينية المختلفة أداةً فاعلةً لطمس كل فرقةٍ دينيةٍ بعض تفصيلات الترجمة، وعملت كذلك على قولبتها في إطارٍ يتفق مع مذهبيتها دون أنْ تلج في غمار الموضوعية والحيادية الكاملة.

يقول الدكتور نضير الخزرجي تعليقًا على ذلك التشويه المتعمد: «وقد اكتشفت من خلال العمل التحقيقي في دائرة المعارف الحسنية، أن بعضا من المصنفين يعمد في الطبعة الثانية لمعجمه إلى حذف شخصياتٍ، وسد الفراغ بشخصياتٍ جديدة؛ إما لكراهيةٍ استجدت لدى المؤلف تجاه الشخصية المترجمة، أو أنه استحصل أموالًا من جهات معينة لطمس معالم الشخصية المترجمة في الطبعة الأولى؛ لدواعٍ مختلفة، فالقاسم في كل الأحوال إما العداء الشخصي أو المال، ومن يعمد إلى مثل هذه الأساليب غير المرضية في عالم التحقيق، فهو في حقيقة الأمر ليس بمحقق ولا باحث»[٣٤].

وتنتهي تلك القراءة إلى جملةٍ من الملاحظ جاءت على النحو الآتي:

- أُقْحِم الرواة في ضياع الشطر الأكبر من الشعر، ولعل استقراء الشعر العربي القديم يفضي إلى نتيجةٍ مؤداها أن الشعر المسكوت عنه المستند إلى تابوهات أخلاقية وسياسية ودينية، كان أقل حضورًا من الشعر الممنوع بسبب القواعد الفنية والحداثة في تاريخ العربية.
- حرص المستشرقون المنصفون على إيصال التراث العربي منقحًا، فأعملوا فيه التدقيق، «فقد وفر لنا المستشرقون ألوف الذخائر العربية مرتبة محررة موثقة، تجلها مكتباتنا، وتعتمد عليها جامعاتنا، ويستند إليها علماؤنا، إذ سبقنا المستشرقون إلى نشرها، لا لأمتنا فحسب، بل بترجمة معظمها إلى سائر لغاتهم ... وقد بلغ حرصهم على تطبيق منهجهم العلمي عليها إلى نشر بعضها في أكثر من سبع طبعاتٍ لمقابلتها على المكتشف من نسخها وتصحيح أخطاء أوائلهم، والاستدراك عليها، والبلوغ بها حد الكمال»[٣٥].
- أساء بعض المحققين العرب إلى بنية تراثنا الشعري بحذف شطرٍ واسعٍ منه، من خلال التحقيق المشوه الذي اعترى بنية نصوصهم، «نقابل صنيع من اشتغلوا منا بنشر المخطوطات، منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بصنيع المستشرقين فتروعنا المقابلة؛ فأمانتهم في نقل النص يقابلها عندنا عبث بالنصوص يتناولها بالحذف والإضافة والتغيير ...، ودقتهم في مقابلة النسخ الخطية للنص والتماس الأصالة فيها والتثبت من صحة نسبها، يقابلها عندنا إغفال لذكر النسخة المنقول عنها، أو إخراج طبعاتٍ ملفقةٍ مرقعةٍ تنسب إلى المؤلف القديم دون أن يتصل به نسبها ...، وبدا واضحًا أن أكثر القوم هنا لم يقصدوا إلى شيءٍ من النشر العلمي، ولا عناهم أن يثقلوا على أنفسهم ببعض أعبائه وتبعاته، ولا أن يضبطوا أقلامهم بشيءٍ من نظمه ومناهجه، إنما اتخذوا النشر وسيلة ارتزاق فحسب»[٣٦].
- ظهرت تجليات المسكوت عنه في بنية الشعر والنثر، وكذا في التراجم الأدبية.
- يؤكد استقراء نصوص التراث على أن العرب كانوا أكثر طواعية في رواية أشعارهم من تلك الصورة التي قولبها المستشرقون والمحققون العرب.

الهوامش:

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٠٦/٩.

(٢) نجيب العقيقي، المستشرقون، ط ٤، دار المعارف، مصر: ٦٠٦/٣.

(٣) عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، مكتبة الدراسات الأدبية ٥٣، دار المعارف بمصر.

(٤) المستشرقون: ٦٠٦/٣، ٦٠٧.

(٥) المستشرقون: ٣٩٤/٣.

(٦) يقصد بهذه النشرات الثلاث:

١- "العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين"، جريفسفلد ١٨٦٩ The Divans of the six ancient Arabic Poets. London, 1870.

٢- وفي إثره أصدر كتابًا بعنوان: "ملاحظات على صحّة القصائد العربية الجاهلية" Bemerkungen űber der Aechtheit der altarabischen Gedichte 1872 وطبع بالأوفست طبعة جديدة سنة ١٩٧٢ عند الناشر Osnabrű, Biblio-Verlag, 1972.

٣- "مجموع أشعار العرب" في ٣ أجزاء، ١٩٠٢ – ١٩٠٣م: sammlungen alter arabischen Dichter, 3 Bde, 1902 – 3.

(٧) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م: ٤٧ - ٤٨.

(٨) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين: ٦.

(٩) انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام:٦/ ٥٧٩.

(١٠) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، جامعة بغداد، ١٩٩٣م: ٩/ ٢٩٧.

(١١) طه حسين، في الشعر الجاهلي، ط مكتبة دار الندوة الإليكترونية: ٣٠.

(١٢) طه حسين، في الشعر الجاهلي: ٣٤.

(١٣) الشعر والشعراء، ط دار الثقافة، بيروت: ٢٣٩/١.

(١٤) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط دار المعارف: ١/ ٦٦.

(١٥) سيد مرتضى حسيني، عباس كنجعلي، حذف القصائد العلويات من ديوان حسان بن ثابت، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة التاسعة، العدد الرابع، شتاء، ١٤٣٤هـ: ١٢٧-١٢٨.

(١٦) العماد الأصفهاني الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الأندلس)، ط مطبعة الرسالة، مصر، القسم الرابع: ١/ ٢٤-٢٥.

(١٧) محمد صادق محمد الكرباسي، ديوان القرن العاشر الهجري، ط١، المركز الحسيني للدراسات المتحدة، لندن، المملكة المتحدة، ٢٠٠٩م: ٢/ ١٢.

(١٨) طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية): ١٤٢.

(١٩) سبط التعاويذي، أبو الفتح محمد بين عبيد الله بن عبد الله، ديوانه، تحقيق: مرجليوس، طبع في مطبعة المقتطف بمصر، ١٩٠٣هـ:٤.

(٢٠) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الفكر، بيروت، المجلد الأول: ١/ ٤ – ٥.

(٢١) أورد نجيب العقيقي ترجمه له في مؤلفِه " المستشرقون"، فيقول" مرجليوث.د.س (١٨٥٨-١٩٤٠) Margoliouth,D.S ولد وتوفي في لندن، وقد تخرج باللغات الشرقية من جامعة أكسفورد، وأتقن العربية، وكتب فيها بسلاسة، وأقام أستاذًا لها في جامعة أكسفورد منذ ١٨٨٩م، فعد من أشهر أساتذتها، وبين أئمة المستشرقين، ورأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، ونشر فيها بحوثًا ممتعةً، وكان لآرائه قدرها لدى أدباء العرب المعاصرين، وقد تعرف إلى بعضهم في تردده على الشرق الأوسط، ومنهم من رد عليه قوله بوضع الشعر الجاهلي في عدة كتب، وانتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي البريطاني، والجمعية الشرقية الألمانية، وغيرها: ٧٧/٢.

(٢٢) أورد العقيقي جملة من المؤلفات والتحقيقات التي قدمها مرجليوث للمكتبة العربية، والتي من بينها:" مختارات شعرية لأرسطو مترجمة بالعربية والسريانية واللاتينية، متنًا يونانية وترجمة إنجليزية، مع تعليق ومعجم، في جزأين، ورسائل المعري، متنًا وترجمة، مع شرح وتذييل، وترجمة الأعلام، وديوان ابن التعاويذي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، نسخه وحققه وقدم له بالإنجليزية، وذيله

بفهارس الأعلام والكتب في سبعة أجزاء، والأنساب للسمعاني، من تجارب الأمم لمسكويه، متنًا وترجمةً في سبعة أجزاء، ونشوار المحاضرة للتنوخي، متنًا وترجمةً.

(٢٣) محمد ثابت السيد، القصائد المحرمة للشاعر الماجن أبي نواس والشعراء العرب:٦.

(٢٤) صفي الدين الحلي، أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن أبي القاسم التنبسي، ديوانه، دار صادر، بيروت: ٧.

(٢٥) صفي الدين الحلي، ديوانه، طبع بدمشق الشام بمطبعة حبيب أفندي خالد، ١٨٨٠م: ٤٦٥.

(٢٦) صفي الدين الحلي، ديوانه: ٥٦١.

(٢٧) صفي الدين الحلي، ديوانه: ٥٦١.

(٢٨) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المجلد الثاني: ٢/ ٣٠-٣١.

(٢٩) فليحة حسن، الإيروتيكية، مقال منشور بموقع مؤسسة النور للثقافة والإعلام.

(٣٠) جعفر شكري، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال: ١٦.

(٣١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي: ٤٠٩/١.

(٣٢) ديوان جرير بن عطية الخطفي، ط دار صادر بيروت: ٤٩٢.

(٣٣) أحمد عبد القادر صلاحية، شعر صاعد البغدادي، مجلة جامعة البعث، المجلد ٣٩، العدد ١٦، ٢٠١٧م: ٧١ – ٧٢.

(٣٤) د. نضير الخزرجي، أروقة المداد (قراءة موضوعية في الموسوعة الحسينية)، المركز الحسيني للبحث العلمي، ٢٠١٩م: ٤/ ٣٣٠.

(٣٥) نجيب العقيقي، المستشرقون: ٣/ ٣٩٥.

(٣٦) نجيب العقيقي، المستشرقون: ٣/ ٣٩٦٣.